أسطوريات عصر الحديد(*)

ميرسيا إلياد
عرّبه: حسن حيدر

لن نلحّ على قداسة الحديد، فسواء قبلنا بسقوطه من قبة السماء أم بكونه مستخرجاً من باطن الأرض، فإنّه مشحون بقوّة مقدّسة. إن الإجلال للحديد بقي على حاله حتى عند تجمّعات ذات ثقافة عالية. فالملوك الماليزيون، احتفظوا إلى وقت ليس ببعيد بـ «قلعة مقدّسة من الحديد»، حيث شكّلت جزءاً من حقوقهم الملَكيّة (Regalia) وأحاطوها «باحترام غريب ممزوج برعب خرافي»[1]. بالنسبة «للبدائيين» الذين يجهلون عمل المعادن، كانت الأدوات الحديديّة هي أيضاً أكثر احتراماً. فالبهيل (Les Bhil) من سكان الهند القدماء، كانوا يقدّمون بواكير الثمار لرؤوس سهامهم، التي كانوا يحصلون عليها من القبائل المجاورة[2]، ولنوضحْ بأنّ الأمر لا يتعلّق «بتيميّة» أو بعبادة شيء بحدّ ذاته ومن أجل ذاته؛ وبكلمة، لا يتعلق «بخرافة» ـ ولكن باحترام مقدس تجاه شيء «غريب» لا ينتمي إلى الكون العادي، ويأتي من «مكان آخر» فهو تالياً إشارة من «العالم الآخر»، صورة تقريبية للكينونة [المفارقة]. إن هذا بديهي في ثقافات عرفت استعمال الحديد الأرضي: واستمرّت لديها أيضاً ذكرى «المعدن السماوي» الأسطوريّة، والاعتقاد بتأثيراته الخفيّة. إن بدو سيناء مقتنعون بأنّ الذي ينجح بصنع سيف من الحديد النيزكي (Météorique) يصبح محصّناً في المعركة وضامناً للقضاء على جميع خصومه[3]. «المعدن السماوي» غريب عن الأرض فهو إذاً «مفارق» يأتي من «عل» : لهذا، بالنسبة إلى عربي [إلى بدوي] في أيامنا، فإنّه عجيب. وباستطاعته اجتراح المعجزات. ربما تعلّق الأمر هنا أيضاً بالذكرى، الموغلة في الأسطوريّة، من الفترة التي استعمل فيها البشر الحديد النيزكي فقط. في هذه الحالة أيضاً، نصبح أمام صورة للكينونة [المفارقة]. لأنّ الأساطير حفظت ذكرى هذه الحقبة الخرافية، حيث عاش رجال وُهِبُوا كفاءات وقدرات خارقة؛ رجال أنصاف آلهة تقريباً. لكنْ، يوجد والحالة هذه، قطيعة بين «ذلك الزمن» الخرافي (illud

---

(*) فصل من كتاب ميرسيا إلياد، «حدّادون وخيميائيّون»، فلاماريون، باريس، ١٩٧٧.
Mercia Eliade, « Forgerons et Alchimistes», «FLAMMARION, Nouv. Éd. (Paris, 1977).

tempus) والأزمنة التاريخيّة ـ وكلّ قطيعة تشير، على مستوى الروحية التقليدية إلى كينونة [مفارقة] منسوخة بواسطة «السقوط».

كما احتفظ الحديد بتأثيره الخارق، السحري ـ الديني، حتى عند شعوب ذات تاريخ ثقافي متقدّم كفاية ومعقّد. كتب بلين (Pline) أنّ الحديد فعّال ضدّ «ضرر الأدوية» (Les Noxia medicamenta) وأيضاً «ضد الهلوسات الليليّة» -Adeversus noctur « nas limphationes » (بلين، «التاريخ الطبيعي» = (Pline, Hist. Nat. 44, xxxiv). وهناك معتقدات مماثلة في تركيا وفارس والهند عند الدياك (Dayak) . . . إلخ. سنة 1907، جمع أ. جولدزيهر (I.Goldziher) مجموعة من الوثائق تتعلّق باستعمال الحديد ضدّ الجنّ. بعد ذلك بعشرين سنة، زاد س. سليغمان (S.Eligmann) عددها إلى عشرة أضعاف. عملياً الملف غير محدود: من مهام السكين خصوصاً إبعاد الشياطين؛ في الشمال الشرقي من أوروبا، الأشياء المصنوعة من الحديد تحمي المحاصيل من تقلّبات الطقس، مثلما تحميها من أذى السحر والعين الشريرة[4]. إنّه تأثير العصر الأخير من بين «عصور الحديد». عصر الحديد المنتصر، حيث أسطوريّاته المغمورة في جزء كبير منها، ما زالت تعيش أيضاً في عادات ومحرّمات، وخرافات، غير قابلة للشكّ في جزء كبير منها. ولكن مثل الحدادين، فإنّ الحديد احتفظ بميزته المتناقضة: باستطاعته كذلك أن يجسّد الروح «الشيطانية». في العديد من الأمكنة يستذكرون بغموض، أنّ الحديد يمثّل النصر، ليس فقط من خلال الحضارة (يعني من خلال الزراعة) بل أيضاً من خلال الحرب. النصر العسكري يصبح مشاكلاً أحياناً لنصر شيطاني. بالنسبة للوشاغا (Wa Chagga) يحتوي الحديد بذاته على قوة سحريّة هي عدو الحياة والسلام[5].

كما أنّ أدوات الحدّاد تشارك في القداسة. المطرقة، المنفخ، السندان تتكشّف عن كائنات حيّة وعجيبة: اشتهرت بقدرتها على العمل بقوّتها الذاتية السحرية ـ الدينيّة بدون مساعدة الحداد. إن حداد التوغو (Togo) يتكلّم في ما خصّ أدواته عن «المطرقة وعائلتها». في أنغولا (Angola)، المطرقة مقدّسة لأنها هي التي تطرق الأدوات الضروريّة للزراعة: فهي لذلك تعامل كأمير وتغنّج كطفل. الأوغو (Les Ogowe) يقدّسون منفخ القبائل المجاورة لأنّهم لم يعرفوا الحديد أبداً وبالتالي لا يعملونه. الموسنجر (Les Mossengere) والباساكات (Les BasaKate)، يعتقدون بأنّ شرف المعلّم ـ الحداد يتركّز في المنفخ[6]. في ما خصّ الأفران، يحاط بناؤها بالأسرار، ويكون طقساً بحصر المعنى (أنظر، م. إلياد، «حدادون وخيميائيون، ص. 48، وما بعدها (M . Eliade , Forgerons ... , pp . 48 — 59= كلّ هذه المعتقدات لا تتوقّف عند القوّة المقدّسة للمعادن وحسب، بل تمتدّ إلى سحر الآلات. إنّ فنّ عمل الأدوات هو من روح فوق بشريّة، أكانت إلهيّة أم شيطانيّة (الحداد يطرق الأسلحة القاتلة أيضاً). إنّ بقايا الأسطوريّات القديمة العائدة للأزمنة الحجريّة أضيفت وأدمجت في أسطوريّات المعادن. كانت الأداة الحجرية والقبضة [سلاح صوّاني استخدمه الأوّلون] مشحونتين بقوّة خفيّة: إنها تضرب، تجرح، تفجّر، تحدث شرراً ـ كالصاعقة. إنّ السحر المتناقض للأسلحة الحجريّة القاتلة والنافعة، مثل الصاعقة نفسها، انتقل مضخماً إلى الأدوات الجديدة المصنوعة من المعدن. المطرقة، وريثة فأس العصور الحجريّة، أصبحت شارة الآلهة القويّة، آلهة العاصفة. إننا نفهم، لماذا صُوِّرت مذ ذاك آلهة العاصفة وآلهة الخصوبة الزراعيّة كآلهة حدادين. يقدّم التوجن من كوانج ـ سي (Les T'ou - jen de Kouang - Si) عدداً من رؤوس الماعز قرابين إلى الربّ دانتسيان ـ سان (Däntsien - Sân)، لأنّه يستخدم رؤوسها كسنادين

[ج. سندان]. دانتسيان ـ سان يطرق حديده في أثناء العواصف، بين قرون الحيوان المضحّى به. تسقط البروق، والبَرَد المتلألىء على الأرض وتصرع الشياطين. الإله يحمي، بصفته حداداً، الرجال والمحاصيل. دانتسيان ـ سان هو إله العاصفة، متطابق مع التيبتي دام كا (dam - ca) إذاً مع ردورجي ليجس (با) (Rdorje - legs (PA) الذي يمتطي عنزة ويلوح كأنه ألوهيّة قديمة طيبة. إن ردورجي ـ ليجس (با) والحالة هذه هو إله حداد، عبادته على علاقة مع العاصفة، مع الزراعة ومع الماعز [7]. إننا نصادف وضعاً مشابهاً عند الدوغون (Les Dogon) حيث الحدّاد السماوي هو الذي يؤدّي دور البطل المُحضر: يجلب من السماء البذور القابلة للزرع ويوحي للبشر بالزراعة.

لنتذكّر لحظة هذه السلسلة من الصور الأسطوريّة: أرباب العاصفة يضربون الأرض «بحجارة الصاعقة»؛ ولهم كشارات، الفأس المزدوجة والمطرقة: العاصفة هي علامة الزواج المقدّس (Hiérogamie) بين السماء والأرض. الحدادون بطرقهم على سنادينهم، يقلّدون بذلك الحركة النموذجية للإله القوي؛ إنّهم في الواقع مساعدوه، زدْ على ذلك أنّ كلّ هذه الأسطوريّات المتكوّنة حول الخصوبة الزراعيّة والتعدين والعمل، قريبة العهد جداً. فالعدانة بعد صناعة الخزف والزراعة، أحيطت بعالم روحي، حيث الربّ السماوي الموجود أيضاً أثناء الفترات السلاليّة لقطف الثمار والقنص، محكوم بالطرد نهائياً من قبل الإله القوي، الذكر المُخصب، زوج الأم الأرضية الكبرى. ولكننا نعرف أنّه، عند هذا المستوى الديني، ظلّت في الظلّ فكرة الخلق المنفَّذ على يد كائن علوي أسمى، لتترك المكان لفكرة الخلق عن طريق الزواج المقدّس والقربان الدموي. حتى اننا نشهد الانتقال من مفهوم الخلق إلى مفهوم الإنجاب. هذا هو أحد الأسباب التي من أجلها نلتقي في الأسطوريّات التعدينيّة، بدوافع الزواج الطقسي والقربان الدموي. هنا يقتضي أن نفهم جيّداً «الجِدّة» المتمثلة بفكرة أن الخَلق يتمّ عن طريق تضحية أو تَضحية ذاتيّة. إن الأسطوريّات السابقة عرفت خاصة نموذج الخلق انطلاقاً من مادة أوّلية مُصاغة بواسطة الإله. إنّ اعلاء شأن القربان الدموي بوصفه شرطاً لكلّ خلق ـ خلق الكون وخلق الإنسان ـ يقوّي، من جهة، التماثلات بين الإنسان والكون (لأنّ الكون نشأ هو الآخر من عملاق أوّلي، مارد) ولكن على الأخصّ يُدخل الفكرة القائلة بأن الحياة لا يمكن أن تتولّد إلاّ بدءاً من حياة أخرى يُضحّى بها. هذه النماذج من نشأة الكونيات وأصول الإنسان، سيكون لها نتائج خطيرة: منها التوصل إلى عدم تصوُّر أيّ «خلق» أو «صناعة» محتملة بدون قربان سابق. لنرجع مثلاً، إلى طقوس البناء التي تُنْقَل بواسطتها «حياة» أو «نفس» الضحية إلى البناء ذاته. هذا الأخير يصبح للسبب نفسه، الجسم المعاري الجديد للضحية المقدّمة [8].

إنّ مردوك (Marduk) خلق الكون من جسد الغول البحري تيامات (Tiamat) الذي صرعه وتصادف حوافز مماثلة في مواضع أخرى: في الأسطوريات الجرمانية يشكّل العملاق إيمير (Ymir) المادة الأوّلية مثلما يشكّلها بأنكو (P'anku) وبوروشا (Purusha) في الأسطوريّات الصينيّة والهندية. بوروشا تعني «إنساناً» مما يُظهر جيداً أنّ «القربان البشري» يؤدي دوراً فيما يختصّ بنشأة الكون في عدد من المأثورات الهنديّة. ولكنّ قرباناً كهذا كان نموذجياً: الضحيّة البشريّة المُضحّاة جسّدت المارد السماوي الأوّلي. إنّه دائماً إله من كان يُضحّى به. إله ممثَّلاً بإنسان. هذه الرمزية نتجت عن مأثورات أسطوريّة على علاقة بخلق الإنسان مثلما نتجت عن خرافات حول أصل النباتات الغذائيّة. لكي يخلق الإنسان، ضحَّى مردوك نفسه بنفسه: «سأجمّد دمي، وسأعمل

منه العظام. وسأقيم الإنسان واقفاً، في الحقيقة الإنسان سيكون... سأبني الإنسان، ساكن الأرض...». إنّ كنج (King) الذي كان أوّل من ترجم هذا النص، قرّبه من مأثور بلاد الرافدين عن الخلق، نقلاً عن بيروز (القرن الرابع ق.م (Bérose) - وهو صاحب مصنّف تاريخي قيّم عن الكلدان كتب باليونانية، وهو مفقود الآن):

«وحين رأى بعل (Bêl) أنّ الأرض صحراويّة ولكنْ خصبة، أصدر أمراً لأحد الآلهة بأن يطيح برأسه (أي رأس بعل)، وبأن يمزج الأرض بالدم الذي سيسيل منه. وبأن يشكّل بشراً وحيوانات قادرة على تحمّل الهواء[9]» إنّ أفكاراً مشابهة خاصة بنشأة الكون، تصادف في مصر. والمغزى العميق لكلّ هذه الأساطير واضح جداً: الخلق هو تضحية. فلا توصّلَ إلى بث الروح فيما خلق إلّا بنقل حياته الخاصة إليه (دم، دموع، مني، نفس... إلخ). سلسلة أخرى من الخرافات على علاقة تشكّليّة بهذا السبب تحدّثنا عن أصل النباتات الغذائيّة المتحدّرة من القربان الذاتي لربّ، أو لربّة، لضمان حياة الإنسان، فإنّ كائناً إلهياً - إمرأة، فتاة شابة، رجلاً أو طفلاً - يضحّي بنفسه: من جسده تنبت الأصناف المتنوّعة للنباتات المغذّية. الأسطورة تشكّل النموذج المثالي للطقوس التي يجب الاحتفال بها دورياً. هذا هو معنى التضحيات البشريّة لأجل المحاصيل: تُعدم الضحيّة، تُقطّع، وتُنثر القطع على الأرض للحصول على الخصوبة[10]. ولكنْ حسب بعض المأثورات، يُنظر إلى المعادن أيضاً كأنّها متحدِّرة من دم أو من لحم كائن أوّلي نصف إلهي مُضحّى به.

إنّ مفاهيم كهذه، متعلّقة بنشأة الكون، تقوّي المماثلة بين الإنسان/الكون. وإنّ بعض خطوط الفكرة أنمت هذه المماثلة ومدّدتها في اتجاهات مختلفة. ونتج عنها، من جهة «جنسنة» (Sexualisation) أو تجنسن العالم النباتي والمعدني، وعموماً، أدوات العالم المحيط وأشيائه.

إلى جانب هذه الرمزيّة الجنسيّة مباشرة، يجب علينا تذكّر الصور المتعددة لبطن الأرض وللمنجم المشبّه بالرحم والفلزّات المشبّهة بالأجنّة وهذه صُوَر أضفت معنىً نَسَويّاً وتوالديّاً على الطقوس المُصاحبة لأعمال المناجم والعدانة.

الحواشي

(1) أ. ك. كرويت، مذكور في: و. بيرّي، «إبن الشمس»، ص 391.
A.C. Kruyt, cité par W. Perry, The Child of the Sun (London, 1927), P.391.

(2) ر. أندريه، «المعادن عند الشعوب البدائيّة»، ص 42.
R. Andrée, Die Metalle bei den Naturvölkern (Leipzig, 1884), P. 42.

(3) و. أ. جننغيز - براملي، «بدو شبه جزيرة سيناء»، 1906، ص 27؛ مذكور في: ر. ريسلر، (Das Qainzeichen) (العالم الشرقي، 29: 1929، صص: 48 - 112)، ص 55.
W.E. Gennings - Bramley, The Beduins of the Sinai - Peninsula (Palestine) Exploration Fund, 1906, P.27), cité par R.Risler «Das Qainzeichen» (Le Monde Oriental, 29; 1929, PP. 48 - 112), P.55.

(4) بخصوص درو الحديد في السحر والزراعة والطب الشعبي... إلخ، انظر الإشارات في الملحوظة B من كتاب «حدّادون وخيميائيون»
M. Eliade, « Forgerons et Alchimistes, Note B, P. 161.

(5) والتركلاين، «المناجم والتعدين في أفريقيا السوداء»، ص 117.

Walter Cline, Mining and Metallurgy in Negro Africa, (Paris, 1937), P.117.

(6) ر. أندريه، المصدر نفسه، ص 42؛ و. كلاين، المصدر نفسه، ص 124؛ وكذلك ر.ج. موريس، «التعدين في الزمن الغابر»، ص 83؛

R. Andrée, op. cit; P. 42; W. Cline, op. cit, P. 124: R.J. Forbes, «Metallurgy in Antiquity», P.83.

(7) دومينيك شرودر، «الدين عند التوجن»، صص: 828 وما بعدها؛ هـ: هوفمان، «مصادر لدراسة تاريخ الديانات الطيّبة في التيبت، ص. 164؛

Dominik Schröder, «Zur Religion der Tujen (Anthropos,1952), PP. 828 sq; H. Hoffmann, Quellen Zur Geschichte der Tibetischen Bon Religion (Mainz, 1951), p. 164.

(8) cf. M. Eliade, «Maître Manole et le Monastère» Dans: De Zalmaxis à Geng:z - Khan, (Paris, 1970), PP. 162 sq.

تمتّد هذه الفكرة حتى أيامنا هذه في المفهوم العام، بأنّه لا يمكننا خلق أيّ شيء بدون تضحية بعض ما هو مهمّ جدّاً، أغلب الأحيان حياته الخاصة. كلّ نداء يتطلّب التضحية الأسمى بالذات.

(9) كنج، ألواح الخلْق السبعة، ص 86؛ مذكور في س. لنغدوم، «القصيدة السومرية حول الجنة، الطوفان، وسقوط الإنسان» صص: 33 - 34؛ ولكن انظر أيضاً، إدوارد دوروم، «ديانات بابل وأشور»، صص: 302 - 307. حول هذه المأثورات المتعلّقة بنشأة الكون انظر، إلياد، حدّادون. . . الملحوظة ج، ص 161 - 162؛

King, The Seven Tablets of Creation, P. 86; cité par S. Langdom, «Le poème Sumérien du paradis, du Deluge et de la Chute de l'homme, PP. 33 - 34; Mais Voir aussi E. Dhorme, «Les religions de Babylonie et d'Assyrie (Paris, 1945, Coll. «Mana»), PP. 302, 307. sur ces Traditions cosmologiques et leurs parallèles, Voir Note (Eliade, «Forgerons...», P. 161-162).

(10) بالنسبة لهذه الأسباب الأسطورية والطقوس المتأتّية عنها، انظر كتابنا، «مصنّف في تاريخ الأديان»، صص: 293 وما بعدها، ودراستنا «الأرض - الأم والزيجات الكونيّة المقدّسة (Eranos Jahrbuch, XXII, 1954) صص: 87 وما بعدها. (أعيد طبعها في الأساطير والأحلام والأسرار».

M. Eliade, «Traité d'Histoire des Religions», PP. 293 sq, M.Eliade, «La Terre Mère et les Hiérogamies, Cosmiques (Eranos Jahrbuch, XXII, 1954) PP. 87 sq (Republiée dans, «Mythes, Rêves et mystères, Paris, 1957).